في مواجيده وأحواله
ومقامه المتصف به وكماله وسيرته السنية
وجمل من أخلاقه السنية وحسن معاملاته
مع إخوانه وأهل مودته ،

وفيه فصلان :

في مواجيده وأحواله ومقامه المتصف به وكماله

فأقول وبالله التوفيق: سيدنا أبو العباس رضي الله تعالى عنه، صاحب أحوال سمية ومقامات علية ومواهب رحمانية ومواجيد ربانية، ذو محو وفناء وصحو وبقاء وغية في مولاه، وشهود لما به تولاه ممن أغرق في بحر الحقيقة، وأوتي الجذب حقيقة، وممن أعطى القوة والتمكين والرسوخ في المعرفة واليقين، كما تتلى علكيم آياته، وتجلى لكم بيناته، شرب من تلك الخمرة الأزلية صفواً، وورد من منهله الأروى، وسقى منها كؤساً روية ومداداً قوية، وسلك من السنة نهجاً قويماً وصراطاً مستقيماً، وركب سفينتها، وأجراها التي بالله مجراها ومرساها، فقويت، وفاضت أسراره، وتوالت منازلاته، وتواردت وارداته، ومد منها على الاستمرار بمدد جسيم ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: ٤] وليس يمكن لمثلي التعريف بهذا المقام، ولا الكشف عن حقيقة الأمر من حال أو مرام، وإنّما أذكر من تلك المواهب والتجليات قضايا منبهة عنها، وجزئيات ولوامع وآثار أو وقائع وأخباراً، إذ الحال وارد إلهي ووجدان قلبي، لا يصفه إلا واجده، ويرحم الله قائله:

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ... ولا الصبابة إلا من يعانيها

وقد فسر الحال الأستاذ أبو القاسم القشيري، بأنه معنى يرد على القلب من غير تأمل ولا اجتلاب ولا اكتساب من طرب أو بسط أو غيرهما، وذكر أنه يأتي من عين الجود والمقام، فيحصل ببذل المجهود، وإن صاحب المقام ممكن، وصاحب الحال مرقى، وحكى عن المشايخ: أن الأحوال كالبرق، فإن بقيت فحديث نفس، وعن آخر منهم: أنها تدوم وتبقى، إذا لم تدم فهي لوائح وبوادر، والمراد بالأحوال في الترجمة، ما هو بالمعنى الذي ذكره القشيري، رحمه الله، من ذكر وجده المتكاثر وفيضانه المتظافر الواقع أحياناً بعد أحيان، حسبما رأيناه، مشاهداً لا الحال الملازمة التي هي بمعنى المقام، والمراد بمقامه المتصف به: ما تكيف به من العرفان، حسبما علمناه من كلامه، وإشاراته وتقريراته، وإخباره عن نفسه بإفاضاته، فأما مواجيده وأحواله، رضي الله عنه، فقد كان أول أمره، لما نزل به ما نزل، وبدهه ما بدهه، مصطلماً غائباً لا تفارقه غمرة الحال، وهو مع ذلك في غاية الكمال، وقد يتكلم حين يعتريه الحال بأمور لا يفقه الحاضرون مرادها، ولا يعرف ذو الألسن مفادها، ولا يعرفها إلا واجدها، وينطق أحياناً عند ظهور الحال عليه بمكاشفات ومغيبات من أخبار الزمان، وما يقع منه من الحدثان، ولا يفقه ذلك منه إلا خاصة الخاصة من الإخوان، إلى غير ذلك من حكاياته ووقائعه وآياته، ثم تماسك بعد ذلك وسكن وبطن حاله وتمكن، وعادت الأحوال لا تؤثر في ظاهره، كما كانت، وصار دائماً ساكناً متحركاً، ومضطرباً متماسكاً، وصاحياً شارباً، وحاضراً غائباً، لا يلهيه صحوه عن سكره، ولا يمنعه سكره عن صحوه، أفاده سكره صحوه، وزاده كمالاً وقوة، فحظي من التمكين بالمنزل المكين، فهو كما قيل:

يسقى ويشرب لا تلهيه سكرته ... عن النديم ولا يلهو عن الكأس
أطاعه سكره حتى تحكم في ... حال الصحات وذا من أعجب الناس

وغلبة الحال عليه، رضي الله عنه، إنما كانت لقوة ما نزل به، بدليل ما كان ينطق به إذ ذاك من المعارف والعلوم والأسرار التي لا يحدها حصر، ولا يعيها عقل ولا فكر، وكان يمليها علينا أسماعاً من حفظه ولفظه، وسترد عليك إن شاء الله في محلها، وبدليل ما كان يقع منه للأصحاب من الإمدادات والتصرفات في أحوالهم، فيجدون ذلك منه، حسبما شاهدناه فيهم، وأخبرونا بذلك عن أنفسهم، وليس الناس في غلبة الحال سواء، والفرق بين من يغلبه الحال لضعفه، وبين من يغلبه لقوة الوارد عليه، أن الذي يغلبه لضعفه علامته، أن لا يمد غيره، وقصاراه على نفسه، والذي يغلبه الحال لقوته علامته، أن يمد غيره، وأقوى من ذلك أن يسلبه ما أعطاه، وذلك هو الكامل، يعطي ويسترد، وكل شيء بقضاء وقدر، وقد شاهدناه غير ما مرة، فعل ذلك مع بعض الإخوان لسوء أدبهم، ولموجب

آخر، نسأل الله السلامة والعافية من ذلك، ورزقنا حسن الأدب معه على الاستمرار والدوام، بجاه نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام، وغلبة الحال عليه لقوته، كان يقع لكثير من الأكابر والأقطاب من المتقدمين والمتأخرين رضي الله عنهم آمين، **وما زال** سيدنا، رضي الله عنه، بعد تماسكه سوي الحال، فايض النور، يقع له في كثير من الأحيان فيضان عظيم وخير جسيم، وقد شاهدنا هذا منه غير ما مرة في أوقات فيضه، ولا يتفطن له إلا خاصة الخاصة ممن يلازمه، ومن أراد الله به خيراً، والغالب من الحاضرين لا يفقه منه شيئاً، بل إنّما هو على حاله، وما يتحدث به معهم من مقاله وحذ به رضي الله عنه أمر واضح، وحال لائح، لا يزال يظهر عليه الغيبة في حال ظهور صحوه، فصلاً عن حال ظهوره، ولقد جالسناه غير ما مرة، فيسأل عن أحدنا وهو حاضر معنا في مجلسنا، فيقع له هذا كثير، وكذلك يظهر عليه رضي الله عنه من آثار جذبه وقوة حاله أمور أخر، كعظم جثته وامتلاء بدنه وتهلل وجهه وثقل الأمر عليه، حتى لا يستطيع حركة، ونذكر هنا ما كان يقع للنبي ﷺ عند نزول الوحي، وتلقي الأمر الإلهي، من أنه كان يعالج منه شدة، وتأخذه البرحاء فينفصل عنه الملك، وأن جبينه ليتفصد عرقاً، ويثقل حساً لما يلقى عليه من القول الثقيل، أي العظيم الذي يثقل له حامله، وأنه نزل عليه الوحي يوماً، جالساً فخذه على فخذ زيد بن ثابت رضي الله عنه، فثقلت جداً، حتى كادت ترض فخذ زيد، أي تكسرها، وهؤلاء رضي الله عنهم مظاهر آياته، والواردون من إمداد وارداته، منه يستمدون، ومن بحره يغترفون، **ومن شأنه**، رضي الله عنه، إذا قوي حاله أنه يزيد بهاؤه وجماله، ويتهلل وجهه، ويلوح سناه، ويبدو عليه أثر باطنه ومعناه، فترى عليه حسناً بارعاً ونوراً لامعاً، ويبهرك جماله وجلاله وبهاؤه وكماله، فيأخذ بلبك ومجامع قلبك، فيملكك هواه، ولا تلتفت لسواه حسناً لونياً وسراً إلهياً، ولله در القائل:

أنظر ترى شمس المعارف أشرقت ... بجبينه الباهي العلي الأشرف
كل المشايخ ألبسوا حلل إليها ... لكن سماهم بالجمال اليوسفي

وقال غيره:

أنظر لروض الحسن فيه تفتقت ... بجماله وبهائه وأزهاره
من يستطيع يرى لذاك حقيقة ... حازت بمن يرنو لها أبصاره
وبقلبه النور الإلهي اجتلى ... فعلى محياه بدت أسراره

وقال غيره:

انظر لمطلع حسنه وجماله ... قد أشرقت بجبينه أنواره
سر المعارف قد حواه ضميره ... فبدت بغرة وجهه آثاره
هو بحرها الطامي ألم تر أنه ... تهمي بفيض دائماً أسراره

وكثيراً ما يلوح عليه ذلك عند حضور سماع أوصاف النبي ﷺ المعنوية ونعوته الجلية أو حديثه أو أخباره، فيبرز منه ما كمن، ويظهر عليه أثر ما بطن، ويقع له الوجد والهيمان والسكر والفيضان، فتلوح عليه أنواراً، وتبدو على لسانه أسراراً، وتنفجر من قلبه علوماً وأخباراً، رزقنا الله رضاه آمين.

وأما مقامه: المتصف به رضي الله عنه، فذلك التحقيق بالمعرفة والتمكن في اليقين وكمال التوحيد والتفريد والتجريد وشهود الحب من الله، وأن العبد محبوب ومجذوب لحضرة ربه، ومطلوب دأبه الركون إلى مولاه والانفراد به عن كل ما سواه، وحب أمره وبغض ما عنه نهاه، والوقوف دائماً ببابه والعكوف أبداً على جنابه، لا يقر له مع غيره قرار، ولا له عما سواه مدار، لا لهج له إلا بالله في حركاته وسكناته ويقظاته وسناته وسائر تقلباته، إذا ذهب أو قام أو قعد أو انتبه من نوم، ذكر الله ذكراً يعرف أنه عن قلب معمور ممتلئ بحكمة الإيمان والنور، يهتز له السامع، وتطمئن له القلوب والمسامع، لا يستغرقه النوم، بل يتقلب فيه إذا تحرك أو انقلب، ذكر الله فيه قد امتزجت حقيقته بالتوله بربه واللهج به وحبه، واطمأن به إيقاناً ومعرفة وإيماناً لا معول إلا عليه ولا استناداً إلا إليه، لا يبالي بإقبال من الخلق ولا بإدبار ولا بمودة منهم ولا بإضرار، قد أعطي التأييد في كل ما يصرفه الله ويريده، لا تجده إلا راضياً بمراد الله وقضائه، فرحاً لإبرامه وإمضائه، متحدثاً بأنعم الله وآلائه، لا يحب التدبير مع الله والاختيار، ويقول لا أحسن من فعل الفاعل المختار، ليس له أبداً مراد إلا ما قضاه الله وأراد، فلا نراه إلا محباً لما كان عليه الوقت والزمان من شدة ورخاء

وخوف وأمان، وحاملاً للناس على الرضا به والاستسلام لمصابه، وإذا تحول حال الوقت، تحول مراده عنه، لا يقف مع شيء منه، وكثيراً ما يقرر هذا المعنى ويدل عليه ويرشد بحاله ومقاله إليه، وينشد بحال على سبيل التمثيل:

أنـا مـعـي بـدر الـكـمـال حـيـث يـمـيـل قـلـبـي يـمـيـل

ذلك بأنه رضي الله عنه، قد محى السوي، فلا يشاهد مع الله غيراً، ولا يرى لسواه نفعاً ولا ضراً، بل يشاهد الفعل من الله، وأنه هو المتصرف والدال بفعله عليه والمتعرف، وأن أفعاله كلها مصحوبة بالحكمة محفوفة بالرحمة، ويرى الخلق كالأواني المسخرة في يد غيرها، وبعد شهود الإنسان نفسه أثنينية، ويتمثل بلسان حاله ويقول:

إذا قـلـت مـا أذنـبـت قـالـت مـجـيـبـة وجـودك ذنـب لا يـقـاس بـه ذنـب

وعلى هذا المعنى مدار حالته، رضي الله عنه، فلا ترى أفعاله وأقواله وتصريحاته وتلويحاته تحوم إلا على الفناء في الله، والغيبة فيه عما سواه، وشهود صفاته وأسمائه، وعظمته وكبريائه، وجماله وكماله، وحسن صنعه وإحسانه، ذلك ديدنه وشعاره، ووطنه وقراره، فطري في ذلك مقامات اليقين كلها من التوبة والزهد والصبر والشكر والخوف والرجاء والتوكل والمحبة والرضا، وحوى صفة العارفين بأسرها من محبة الله والجمع عليه، والاستناد في كل شيء، والاستسلام للأقدار، وترك التدبير والاختيار، وغير ذلك من صفاتهم وسماتهم، مما أشرنا إليه آنفاً، فلا تحصر في حال تضعفه إليه، أو تقيده بمقامه تقتصر به عليه، فلا تجده مقيماً على شيء، ولا واقفاً مع أمر، بل بحكم الوقت بحسب ما يأتي الله به من عنده، وهذا حال بعض العارفين بالله تعالى. وقد سئل الجنيد عن العارف بالله فقال: لون الماء لون إنائه، وقال القشيري في رسالته: بعد أن ذكره عنه، يعني أنه بحكم وقته، وقال أيضاً أبو زيد: للخلق أحوال، ولا حال للعارف، لأنه محيت رسومه، وطويت هويته بهوية سيده، وعفت آثاره بآثار غيره، وقال الشيخ زروق في قواعده: بعد أن ذكر وصف العابد الزاهد وغيره، فإن أرسل نفسه مع مراد الحق فهو العارف، وقد مثل أهل الطريق العارف بحافظ القرآن كله، وذا الحال بحافظ سورة منه، أو سوراً، فإذا قلت: عارف، فقد نسبت إليه المقامات كلها، وأغنى عن أن تصفه بشيء من المقامات من الزهد والتوكل والتفويض وغيرها، لأنها منطوية فيه، ومن انجمع على مولاه، وملكه حبه وهواه، حتى فتى فيه عن سواه، لا بد أن يكون شاكراً لنعماه، صابراً لبلواه، راضياً بقضاه، مفوضاً إليه، متوكلاً عليه، منقطعاً عن غيره، جامعاً للمقامات كلها، بل مترقياً عن ذلك كله، لا يشاهد شيئاً ولا يراه بعد أن جمعه وحواه، فأهل العرفان هم الغائبون في الله عن كل فان، مشاهدون لجلال الله وجماله، العالمون بصفاته وأسمائه، إذ حقيقة المعرفة، كما قاله الشيخ زروق، رضي الله عنه، في بعض شروحه: على الحكم سريان العلم بجلال الحق سبحانه، أو جماله أو هما في كلية العبد، حتى لا يبقى له من نفسه بقية، فيشهد كل شيء منه، وبه وله، فلا يبقى لوجود شيء نسبة عنده دونه اهـ.

ولشيخنا أبي العباس التجاني من هذا ما لا خفاء فيه على كل من يلوذ بجانبه، أو يمارس شيئاً من أحواله وإشارته وكلامه، ويكفيك من أمره ما وصفناه، بل هو رضي الله عنه من ذوي الخلافة الموصوفين بدلالة الخلق على الله وجمعهم عليه وإيصالهم إليه، ومن أرباب القلوب وسلاطين الأرواح، يطاع أمره، ويجل قدره، وينفع كلامه، وتنفذ سهامه، يحيي القلوب ويبرئ من العيوب، يغني بنظرة، ويوصل إلى الحضرة، إذا توجه أغنى، وأقنى وبلغ المنى، يتصرف في أطوار القلوب بإذن علام الغيوب، حسبما يجده من انضاف إليه، وجمع همته عليه، ويظهر نتائجه وآتاوه ومناهجه، رضي الله عنه وأرضاه، ومتعنا برضاه. **وأما كماله** رضي الله عنه، فهو تمام معرفته بالله تعالى، حسبما قررنا دليله وقوة ظاهره، وباطنه جذباً وسلوكاً، وجمعه بينهما على أتم وصف وأكمل وجه، ودليل قوته باطناً ما تقدم من أحواله، ودليلها ظاهراً ما يأتي بعد هذا، إن شاء الله، من سيره وأفعاله، ولا أكمل منه، والحمد لله في ذلك كله في جمهور العارفين، كما تقف على كل بمحله، إن شاء الله تعالى، **ومن كلامه** رضي الله عنه، نفوذ بصيرته الربانية، وفراسته النورانية التي ظهر مقتضاها في معرفة أحوال الأصحاب، وفي غيرها من إظهار مضمرات وإخبار بمغيبات، وعلم بعواقب الحاجات، وما يترتب عليها من المصالح والآفات، وغير ذلك من الأمور الواقعات، فيعرف أحوال قلوب الأصحاب، وتحول حالهم، وإبدال إعراضهم، وانتقال أغراضهم، وحالة إقبالهم وإعراضهم، وسائر عللهم وأمراضهم، ويعرف ما هم عليه ظاهراً وباطناً، وما زاد وما نقص، ويبين ذلك في بعض

الأحيان، وتارة يستره رفقاً بهم من الاختبار والامتحان، واتفقت لغير واحد معه في ذلك قضايا غير مارة، وكثيراً ما يجالسه الإنسان، فيتكلم له على ما في باطنه، وما شغل قلبه من الهوى والأمور الدنيوية، ويعين النوع الذي شغله منها، ويتكلم بما صنعه الإنسان من فعل قبيح، سلف له قبل مجالسته قريباً، كل ذلك على سبيل الإجمال، وضرب الأمثال، كقوله رضي الله عنه لبعض أصحابه: أنت كما يقول الناس، يسرط الزبدة ويتورع عن الإبرة، مكاشفاً له عن فعل قبيح سلف له، ويبهم عن صاحبه من غير تعيين له بشيمة أو إشارة حسية، كأن يقول: ما بال الإنسان يفعل كذا، وحق من يفعله أن يكون له كذا، ستراً على فاعله، كما اقتضته حكمة الرحمة، وجاءت به الشريعة والسنة، إذ البصيرة كالبصر، يحب غضها ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور: ٣٠] وإلا فهو رضي الله عنه مرآة جليسه ومبصر لحسن أمره وخسيسه، لا يخفى على بصيرته ذلك، ولا يشذ عنها شيء مما هنالك، حتى إنا إذا جالسناه كلنا، يخاف على نفسه الفضيحة، ويطلب من الله السلامة والعافية، لما تكرر علينا من أمره من أسواء أحوالنا القبيحة، وإذا جاءه أحد يستشيره في أمر ديني أو دنيوي، كأمر المعاش مثلاً: بيّن له مرابحة، وأرشده مصالحه، وندبه لما فيه نجاح حاله وفلاح مآله، فينجح مطلوبه، ويحصل مرغوبه، ويبين له حسن العاقبة، وما كان راجيه ومراقبه، فتقع بصيرته رضي الله عنه على الأمور كلها كما هي، لأنها ناشئة عما كمن فيه من النور الإلهي، ومن المعلوم منه في الاستشارة، أن المعتبر عنده الذي عليه المعول هو ما نطق به من الكلام الأول، وبذلك صرح أيضاً غير ما مرة، إذ علم هؤلاء القوم رضي الله عنهم، ليس عن رواية ولا فكرة، وإنما هو العلم اللدني والفتح الرباني، وما حصل أولاً فهو ذاك، ولا يحصل إلا عن الحكمة والصواب، فإن التقطه المستشير عثر على حكمة الاستشارة، وانقلب بغنيمة وتجارة، وإن لم يأخذ به، وراجعه في الكلام، فإنه يجاريه فيه حتى ينصرف، فإن عمل بمقتضى الكلام الأخير، كان بمعزل عن إصابة التدبير ومضيعاً للفائدة المقصودة، فلم ينجح عمله ولا أمله، وقد لا يتيسر له ذلك العمل أصلاً، فيرجع لمقتضى الإشارة في الكلام الأول، ويعلم حكمة الله فيه، ويتبين له الأمر تبياناً، ويقف عليه عياناً، وهذا مما اشتهر وشاع وذاع عند جل الأصحاب في المنع والانتفاع، **ومما** هو دال على تمام بصيرته وقوة نوره وكمال معرفته، إخباره عن الأولياء الماضين من الأكابر وغيرهم، كأنه رضي الله تعالى عنه معاصر لكل من أخبر عنه منهم، فقد أخبر رضي الله تعالى عنه عن غير واحد منهم، ووصفهم بما يشير إلى مقامهم، وما خص الله به كل واحد من الخصوصية، وإذا سأله أحد عن واحد من الأولياء، يخبره عن حاله ومقامه، وما أدركه، وهل هو من أهل التصرف أو غيره، كأنه رضي الله عنه يرى وصف حاله عياناً، وتارة إذا سأله أحد عن ذلك سكت وأعرض، **فمن ذلك** إخباره عن خصوصية مولانا إدريس الأصغر الذي بفاس رضي الله عنه، وعظيم هيبته وجلالته ومكانته وكماله، وما خصه الله به من التصريف في حياته وبعد مماته، فيجل قدره، ويعظم أمره، ويحض على زيارته والتأديب بين يديه ومهابته، ومصداق ما ذكرناه هو منذ دخل شيخنا لفاس، ما ترك زيارته والقدوم إليه يوماً واحداً إلا لمرض قام به، **ومن ذلك** إخباره عن القطب الكامل والغوث الشامل: مولانا عبد السلام بن مشيش، رضي الله تعالى عنه، يذكر من بركاته وآياته ووصفه له، لأنه يحصل منه المدد للوافدين عليه واستعظامه لمقامه، **ومن ذلك** إخباره عن الولي الشهير والقطب الكبير سيدي: أبي يعزى رضي الله عنه من كمال معرفته بالله وقضاء حوائج الوافدين عليه، وما خصه الله به من التصريف والمدد القوي للكبير والصغير والضعيف، ويقول كل من قصده في حاجة تقضى، كائنة ما كانت، ويحض على زيارته وتعظيمه وموالاته، **وكشرحه** لحال غيرهم من أكابر الأولياء كسلطان الأولياء مولانا: عبد القادر الجيلاني رضي الله تعالى عنه، وابن العربي الحاتمي، وأبي الحسن الشاذلي، وأبي العباس المرسي، وسيدي أبي مدين الغوث، وسيدي أحمد بن يوسف، وغيرهم رضي الله عنهم، فلا نطيل بذكرهم، سمعته رضي الله عنه يذكر جل من تولى القطبانية من بعده ﷺ إلى وقتنا هذا، وكل من ذكره يصف حاله، وما حصل له من المقامات العلية والأحوال السنية، كل على حسب ما أولاه مولاه، واصطفاه وارتضاه، وهذا كان منه رضي الله عنه قبل هذا الوقت، وأما الآن، فالغالب عليه السكوت رضي الله عنه وأرضاه، ومتعنا برضاه، **ومن كماله** رضي الله عنه وعرفانه الأتم، معرفته لاسم الله العظيم الأعظم، حسبما أخبرنا بذلك، وسنبينه إن شاء الله في محله هنالك، **ومن كماله** رضي الله تعالى عنه وعلو منصبه الشريف، ما أوتيه من مقام الخلافة وخطة التصريف، ووليه من النيابة والتحكيم والأمر النافذ العميم من جلب ودفع وضر ونفع، فهو يجلب بقوته، ويدفع ويضع بهمته، ويرفع ويرقى بإذن الله،

وينزل ويولي بأمر الله سبحانه، ويعزل على حسب ما صرفه فيه مولاه، ومكنه منه وأولاه، فحكمه نافذ عن الله، وأمره بأمر الله من غير حول منه ولا اختيار، بل بقدرة العزيز الجبار، ومما استمر من تصريفه وانتشر، وبزغ للعيان وظهر، تصريفه في أمراء الزمان وولاة الأوان، وهذا لأمر قد شاع وذاع، وملأ الأفواه والأسماع، واشتهر على ألسنة القوم ممن ينسب للكشف وغيرهم حتى العوام، وقد وصفه بعض المحبين الأدباء من السادات الفاسيين أدام الله حفظه بالخلافة التصريفية، وكونه مظهراً للأمر الإلهي، وغير ذلك مما يشير إلى وصف حاله ومقامه في قصيدة له، أحببت إيرادها لاختصارها وحسنها وهي:

لقد مدت المداح أعناقها إلى ... مديح إمام فائض النور والسر
فقال لسان الحال كيف بذا وقد ... غدا قلبه مرسى به مظهر الأمر
ولم يبق فيه غير ذكر إلهه ... وصار له بيتاً تقدس عن غير
وأفنى في التوحيد ذاتاً وغاب في ... بحار من التحقيق في لجها يسري
ومد بسر من بقاء وألقيت ... عليه حلى التقريب والوصل والبر
وقيل له أنت الخليفة فارعين ... وأمرك أما إن حكمت فهو يجري
وعمته أنوار النبوة فاغتدى ... بها وارثاً كل الكمال بلا حصر
وزكته أخلاقاً وفاض ينابعا ... من السر والعرفان والفضل والخير
وأبدت عليه مسحة من جمالها ... لذلك قلوب العاشقين له تجري
وتشتاقه حباً وتحيا بذكره ... وكان لديها طيب الذكر والنشر
وصار مهاباً في الصدور معظماً ... يزج الذي يغشاه في الجد والذكر
وتفصيل أوصاف له متعذر ... فكيف يطلق مدحه فاقبلن عذري
وهذا كلام من طفيلي ملفق ... يجاري جياداً بالبطى من الحمر
عليه رضا الرحمن ما حن عاشق ... لرؤيا سناه في محاسنه الغر
ومعشره والصحب طرا بأسرهم ... شباب وشيخ ذي حياة وذي قبر

ووصف مقامه رضي الله عنه وكماله، وكذا وصف مواجيده وأحواله، لا يعلمه على الحقيقة إلا العليم الخبير، أو من أطلعه الله عليه من أهل البصيرة والتبصير، ثم هو لا يمكن التعبير عنه على ما هو عليه، إنما يعبر عنه بنتائجه التي تنبي عنه وتشير إليه، وقد ذكرنا من ذلك قضايا وجزئيات من الدلالة على ذلك كله جليات، فإن كان كذلك، فهو البحر الخضم الواسع الأعظم الذي ليس له ساحل، وتقصر الخطا عنه بمراحل، والمقام الذي لا يترجم عنه، ولا يستوفي أدنى وصف منه، فتبارك الله أحسن الخالقين، وأفضل المنعمين والرازقين، فاملأ السمع من محاسنه وأخباره، ومتع القلب من أسراره وأنواره، فإن لم تستوف شيئاً منها بمزيد القول وإكثاره، ولا بلغت تسع مدولاً معشاره، والله تعالى يرزقنا بركنه، وينيلنا محبته، ويجعلنا في الدارين من حزبه ورفيقه ومن الشاربين من سهل عرفانه وتحقيقه، فإن لم نكن أهلاً لذلك، وكنا أبعد الناس عن تلك المسالك، فالرحيم الودود أهل لأن يرحم ويجود، فهو الذي يفتح للمرتجى باباً مرتجاً ويرحم ذوي الفاقات بتوالي الإرفاقات، ويعطي بغير حساب، ولا سبب من العبد ولا اكتساب، ويجيب من دعاه، وإن صرفته عن الطاعة نفسه وهواه لا إله إلا هو، ولا راحم سواه، وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

وأما ثواب الاسم الأعظم الذي وعدنا به أولاً، فقد قال سيدنا رضي الله عنه: أعطيت من اسم الله العظيم الأعظم صيغاً عديدة، وعلمني كيفية استخرج بها ما أحببت تراكيبه، وأخبره ﷺ بما فيه من الفضل العظيم الذي لا حد له ولا حصر، وأخبره ﷺ بخواصه العظام وكيفية الدعاء به وكيفية سلوكه، وهذا الأمر لم يبلغ لنا أحد أنه بلغه غير سيدنا رضي الله عنه، لأنه قال رضي الله عنه: أعطاني سيد الوجود ﷺ الاسم الأعظم الخاص سيدنا علي كرم الله وجهه، بعد أن أعطاني الاسم الأعظم الخاص بمقامه هو ﷺ، وقال الشيخ رضي الله عنه: قال سيد الوجود ﷺ هذا الاسم الخاص بسيدنا علي، لا يعطى إلا لمن سبق عند الله في الأزل، أنه يصير قطباً، ثم قال رضي الله عنه: قلت لسيد الوجود ﷺ: ائذن لي في جمع أسراره، وجمع ما احتوى عليه ففعل ﷺ، وأما ما أخبره به ﷺ عن ثواب

الاسم الأعظم الكبير الذي هو مقام قطب الأقطاب، فقال الشيخ رضي الله عنه، حاكياً ما أخبره به سيد الوجود ﷺ، فإنه يحصل لتاليه في كل مرة سبعون ألف مقام في الجنة، في كل مقام سبعون ألفاً من كل شيء، في الجنة كائن من الحور والقصور والأنهار إلى غاية ما هو مخلوق في الجنة، ما عدا الحور وأنهار العسل، فله في كل مقام سبعون حوراء وسبعون نهراً من العسل، وكل ما خرج من فمه هبطت عليه أربعة من الملائكة المقربين، فكتبوه من فيه، وصعدوا به إلى الله تعالى، وأروه له، فيقول الجليل جل جلاله: اكتبوه من أهل السعادة، واكتبوا مقامه في عليين في جوار سيدنا محمد ﷺ، هذا في كل لفظة من ذكره، وله في كل مرة ثواب جميع ما ذكره الله به على ألسنة جميع خلقه في سائر عوالمه، وله في كل مرة ثواب ما سبح به ربنا على لسان كل مخلوق من أول خلق آدم إلى آخره، وله ثواب صلاة الفاتح لما أغلق بتمامها ستة آلاف مرة، لكل مرة منه، وله ثواب سورة الفاتحة، وله ثواب من قرأ القرآن كله، أعني بكل مرة أجر ختمه، ومن تلك الختمة الفاتحة وسورة القدر، وله كل مرة من تلاوته ثواب كل دعاء وقع في الوجود له ثواب عظيم أو صغير، وكل ما تلاه التالي تلته معه جميع ملائكة عوالم الله بأسرها، وكل ملك يتلوه بجميع ألسنته، فإن من الملائكة من له سبعون لساناً، ومنهم من له ستون لساناً، وهكذا القليل عنده لسان واحد، وهم ملائكة الأرض، التي نحن فيها، هكذا أخبر سيدنا رضي الله عنه عن النبي ﷺ، والحاصل ما دام يتلوه، فملائكة جميع العالم تتلوه معه بألسنتها كلها، وثواب ذكرهم بجميع ألسنتهم لتالي الاسم في كل مرة، سواء قلل أو كثر. قال الشيخ رضي الله عنه: فقلت لسيد الوجود ﷺ: ذكر الملك هل هو مثل ثواب تلاوة الآدمي كل مرة بسبعين ألف مقام في الجنة، وثواب ما ذكر بعده من كل تسبيح، ومن كل ذكر وكل دعاء وجميع القرآن وصلاة الفاتح لما أغلق؟ الخ أم ينقص ثواب ذكر الملك على ذكر الآدمي؟ فقال ﷺ: ثواب ذكر الملك يضاعف على ثواب ذكر الآدمي بعشر مرات، يعني أن الذي يحصل من الثواب في ذكر الآدمي مرة، يحصل في ذكر الملك مرة مثله عشر مرات، وثواب جميع ذلك، أعني الملائكة بجميع ألسنتها لتالي الاسم، قدر ما تلاه قليلاً أو كثيراً. قال الشيخ، رضي الله عنه، قال لي سيد الوجود ﷺ: أول الكلام على الاسم، أما ثوابه فكل من تلاه من عموم أمتي فله ثواب ختمه من القرآن بكل مرة فقط، بلا زائدة، هذا لكل من علم الاسم الأعظم، وتلاه، وأما من علم أن هذا الاسم هو اسم الذات الخاص بها، وأنه بخصوصه هو اسم ذات الله دون ما عداه من أسماء الله، أراد ﷺ ما عداه من أسماء الله كلها أسماء الصفات والكمالات، وليس للذات إلا هذا الاسم قال لي: أن من علمه هكذا، وأنه هو اسم ذات الله الخاص بها، كان له جميع الثواب الزائد على ختمه من القرآن، وإن لم يعلم ذلك منه، فليس إلا ختمه من القرآن فقط، وإن من تلا الفاتحة بلا شعور من تلاوة الاسم معها، له ثواب تلاوتها فقط، ومن تلا وهو يعتقد تلاوة الاسم معها لوجود حروفه فيها، كان له ثواب تلاوتها وثواب تلاوة الاسم معها، ثم قال رضي الله عنه: تأمّلوا بأفكاركم، تعلموا أنه لا يقوم لتلاوة هذا الاسم عبادة اهـ.

قال سيدنا رضي الله عنه: سألت من الله أن يعطيني مهما ذكرت الاسم مرة، ذكره كل مرة في كورة العالم ألف ألف ألف إلى ثلاث مراتب، وأن كل مرة من ذكر لسان كل ملك، تعدل من صلاة الفاتح لما أغلق الخ ستين ألف مرة، وضمنت لي، وأعطيتها، وقال لي سيد الوجود ﷺ: هذا كله جزء واحد من أحد عشر جزأ من ذكر صاحب التجلي الخاص، لأنه يحصل له هذا الفضل عند ذكر كل حرف من حروف الاسم، قيل لسيدنا رضي الله عنه هذا خاص بك، أو لكل واحد من أصحاب التجلي الخاص؟ قال رضي الله عنه: بل لكل واحد منهم، وقيل له أيضاً، والفضل الذي مهما ذكرت كلمة من كل ذكر على الإطلاق، ذكر معك سبعون ألف ملك، وذكر كل ملك بسبعة آلاف كلمة، وكل كلمة بعشر حسنات. قال رضي الله عنه هذا الفضل خاص بي، ولم يعط لغيري، وسمعت منه رضي الله عنه: أن الاسم الخاص إذا ذكره العارفون كلهم، من لدن آدم إلى قيام الساعة سبعة وعشرون مائة سنة، يذكرونه في كل يوم ألف مرة، وجمعت تلك الأذكار كلها في تلك المدة كلها، ما لحقوا مرة واحدة من ذكر سيدنا الخاص به، نفعنا الله به وبعلومه وأسراره آمنين. وقد تفضل سيدنا رضي الله عنه بهبة هذا الفضل العظيم لأصحابه، الذين هو ذكر سبعين ألفاً الخ، وذلك في شهر الله جمادي الثانية، سنة ثلاث عشرة ومائتين، وألف، وسئل رضي الله عنه عن تحقيق فضل قول دائرة الإحاطة فأجاب: رضي الله عنه بقوله: إذا قدرت ذاكراً ذكر جميع أسماء الله في كل لغة هو نصف مرة من ذكر الكبير، ومرة مما سواه، ويعني بالكبير الذي هو مقام رسول الله ﷺ، ومرة مما سواه من

تراكيب الاسم، لأن تراكيب الاسم لا حد لها، وتضاعف بذكر كل ملك عشر مرات كما تقدم، ثم يضاعف الفضل المذكور إلى سبعمائة ألف ألف مرتين، فإذا ذكر الذاكر عشرة آلاف مرة من الكبير، هو جزء من سبعمائة ألف ألف مرتين، فهذا فضل الكبير، وأما غيره، ففي كل ترتيب النصف من هذا الفضل العظيم، ثم قال رضي الله عنه: وهذا لا يعرفه النساء بل هو خاص بالرجال، لأنها مرتبة عظيمة، فلا تعطى إلا لمن سبق أنه محبوب عند الله، جعلنا الله منهم بمحض فضله وكرمه آمين، **ومما** أملاه علينا رضي الله عنه، قال: لو اجتمع جميع ما تلته الأمة من القرآن، من بعثته ﷺ إلى النفخ في الصور، لفظاً لفظاً فرداً فرداً في القرآن، ما بلغ لفظة واحدة من الاسم الأعظم، وهذا كله بالنسبة للاسم كنقطة في البحر المحيط، وهذا مما لا علم لأحد به، واستأثر الله به عن خلقه وكشفه لمن شاء من عباده، وقال رضي الله عنه: إن الاسم الأعظم هو الخاص بالذات لا غيره، وهو اسم الإحاطة، ولا يتحقق بجميع ما فيه إلا واحد في الدّهر، وهو الفرد الجامع، هذا هو الاسم الباطن، وأما الاسم الأعظم الظاهر، فهو اسم الرتبة، الجامع لمرتبة الألوهية من أوصاف الإله ومألوهيته، وتحته مرتبة أسماء التشتيت، ومن هذه الأسماء فيوض الأولياء، فمن تحقق بوصف، كان فيضه بحسب ذلك الاسم، ومن هذا كانت مقاماتهم مختلفة، وأحوالهم كذلك، وجميع فيوض المرتبة بعض من فيوض اسم الذات الأكبر، وقال رضي الله عنه: إذا ذكر الذاكر الاسم الكبير، يخلق الله من ذكره ملائكة كثيرة، لا يحصي عددهم إلا الله، ولكل واحد من الألسنة بعدد جميع الملائكة المخلوقين من ذكر الاسم، ويستغفرون في كل طرفة عين للذاكر أي كل واحد يستغفر في كل طرفة عين بعدد جميع ألسنته، وهكذا إلى يوم القيامة، ثم قال رضي الله عنه: سألت سيد الوجود ﷺ، عن فضل المسبعات العشر، وأن من ذكرها مرة لم تكتب عليه ذنوب سنة، فقال لي ﷺ: فضل جميع الأذكار، وسر جميع الأذكار في الاسم الكبير، فقال الشيخ رضي الله عنه: علمت أنه أراد ﷺ جميع خواص الأذكار وفضائلها منطوية في الاسم الكبير، ثم قال رضي الله عنه: يكتب لذاكر الاسم بكل ملك خلقه الله في العالم فضل عشرين من ليلة القدر، ويكتب له بكل دعاء كبير وصغير ستة وثلاثون ألف ألف مرة بكل مرة من ذكر هذا الاسم الشريف، وقال رضي الله عنه: فمن قدر أن ذاكراً ذكر جميع أسماء الله في جميع اللغات، تساوي نصف مرة من ذكر الاسم من ذكر كل عارف، وأما ذكر الفرد الخاص به المرة الواحدة بألف ألف ألف ثلاث مراتب من فضل الاسم عند غيره من الأولياء، وكل ملك يضاف فضله في جميع كورة العالم بألف ألف ألف ثلاث مراتب، وكل واحدة من هذا التضعيف تساوي جميع أذكار العالم من أوله إلى وقت الذكر، قال رضي الله عنه هذا الآن، وأما إذا وصلت إلى المقام الموعود به، حصل لي هذا عند ذكر كل حرف من حروف الاسم، وهذا خاص بي، لا مطمع فيه لغيري، **ثم قال** ثواب الاسم الأعظم الكبير الذي هو خاص برسول الله ﷺ، إذا ذكره أحد بما فيه من الثواب عشرة آلاف من الثواب المتقدم، كان جزأ من سبعين ألف جزء من ثوابه، هذا الفضل لكل أحد، ولو لم يكن مفتوحاً عليه إذا علم مرتبته، يريد أن الكلمة الواحدة منه تضاعف إلى سبعمائة ألف ألف مرتين، وأما ثواب الفرد الجامع، إذا ذكره مرة واحدة تتضاعف إلى ألف ألف ألف ثلاث مراتب، وثواب كل كلمة من الفرد الجامع، ومن ذكر الملائكة بجميع ألسنتها بستين مرة من الفاتح، لما أغلق، وكل ما تقدم من ذكر الفرد وذكر الملائكة في المراتب الثلاثة، أعني: مراتب الآلاف الثلاث، يضرب في أحد عشر، هذا ثواب الفرد الجامع لكل ذات من ذوات الفرد الجامع، وهي ثلاثمائة وستة وثلاثون ذاتاً، ويتضاعف هذا الثواب كله للذات التي هي بمكة مائة مرة، هذا للفرد الجامع، وأما العامي الذي علم مرتبته، إذا ذكر الاسم الأعظم مرة ذكرته معه جميع الملائكة بجميع ألسنتها، وجميع ثواب كل لسان يعادل ثواب الفاتح الخ ستة آلاف مرة، **ثم قال** رضي الله عنه: قال لي سيد الوجود ﷺ إن الاسم الأعظم مضروب عليه حجاب، ولا يطلع الله عليه إلا من اختصه بالمحبة، ولو عرفه الناس لاشتغلوا به، وتركوا غيره، ومن عرفه، وترك القرآن والصلاة على لما يرى فيه من كثرة ثواب الفضل، فإنه يخاف على نفسه، **وقال** رضي الله عنه: لو قدرت مائة ألف رجل، يذكر كل واحد منهم كل يوم مائة ألف من الاسم الكبير، ويعيش كل واحد منهم مائة ألف سنة، لم يساو ثوابهم حتى نصف مرة من صاحب المقام، وبعبارة لو قدرت أن جميع أسماء الله المفردات والمركبات بكل لغة، من جميع اللغات، ذكرت مرة واحدة، لم تبلغ نصف فضل الكبير، **وقال رضي الله عنه**: إن الفضل المذكور في الاسم الكبير خاص بالصيغة التي هي خاصة به ﷺ، ولا يلقنها ولا يأذن فيها إلا القطب الجامع، وأما غيرها من صيغ الاسم ففيها النصف من ثواب الكبير كما تقدم، وهذا الفضل

لكل من أخذ صيغة من الاسم الأعظم بسند متصل، وأما من عثر عليه في كتاب أو غيره، وذكره من غير إذن، فثوابه حرف بعشر حسنات فقط لا غير، **ومن خواص** قول دائرة الإحاطة أن من علمه الله له أي لفظه دون أسراره، كان مأموناً من السلب، لا يقدر عليه أحد، وإن كان لم يفتح عليه بالولاية، ولا يقدر على سلبه إلا القطب. **ثم قال رضي الله عنه**: أعطاني رسول الله ﷺ مفتاح القطبانية، وهو لا يعطى ولا يذكر إلا لمن سبق في علم الله، أنه يصير قطباً، وهذا الذكر له خواص عظام، من جملتها: أن من سلكه أحد عشر يوماً فكل حاجة دعا به فيها مرة واحدة، حصلت فيه إجابة كالاسم الأعظم، ولو حصل لعامي لحصلت له الإجابة، فضلاً عن المفتوح عليه، ولم يذكره سيدنا رضي الله تعالى عنه، لأنه خاص به، **وقال رضي الله تعالى عنه**: إن العارف بالله يصير حرفاً من حرف الذات، قيل له: إن الحرف ذات والعارف ذات، كيف يصيران ذاتاً واحدة؟ قال: معناه إن العارف يصير يتصرف بذاته كالحرف، لا أنه يصير عين الحرف، قيل له: لماذا لم يتصرف بالأسماء العالية وبعسكرة الأسماء؟ قال رضي الله تعالى عنه: أما الأسماء العالية فلا يعرفها ولا يطلع عليها إلا الفرد الجامع، وأما عسكرة الأسماء وغيرها من أسماء الله فعرفها العارفون، ولكن العارف يغلبه الحياء من الله أن يطلب حاجة بأسماء الله، ولكن إذا أراد حاجة يوجه همته إليها، فتقضى إن أراد قضاءها، **وقال الشيخ رضي الله عنه**: كان يحدثه قلبي، أن من عرف صاحب الوقت بعينه وهو الفرد الجامع، وعرف الاسم الخاص به، ودعا بهما، استجيب له في الحين، وبقيت زماناً على هذا الحال حتى أخبرني به سيد الوجود ﷺ، كما كان في قلبي سواء. ثم سئل رضي الله تعالى عنه: ما المراد بالاسم الخاص به، هل هو الاسم الأعظم أو غيره؟ قال رضي الله عنه: لا بل غيره، لأن كل واحد من الخلق له اسم من الأسماء العالية، وهو الذي به قوام ذاته، وله اسم نازل، وهو الذي يميز به عن غيره، قال الشيخ الأكبر رضي الله عنه، في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١] ليس المراد الذي قاله المفسرون، ولو كان كذلك ما ظهرت خصوصية لآدم عليه السلام، وإنما المراد بها الأسماء العالية، لأن كل مخلوق في الكون له اسم على قدره في العظيم وبه قوامه اهـ.

قال صاحب الإبريز: ناقلاً عن شيخه قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ المراد بالأسماء: الأسماء العالية، لا الأسماء النازلة، لأن كل مخلوق له اسم عال واسم نازل، فالاسم النازل هو الذي يشعر بالمسمى في الجملة، والاسم العالي هو الذي يشعر بأصل المسمى، ومن أي شيء هو، وبفائدة المسمى، ولأي شيء يصلح الفأس لسائر ما يستعمل به، وكيفية صنعة الحداد له، فيعلم من مجرد سماع لفظه هذه العلوم والمعارف المتعلقة بالفأس، وهكذا كل مخلوق، والمراد بقوله تعالى: الأسماء كلها، الأسماء التي يطبقها آدم، ويحتاج إليها سائر البشر، ولها بهم تعلق، وهو كل مخلوق من تحت العرش إلى تحت الأرض اهـ.

وقال البوصيري رضي الله عنه:

لـك ذات الـعـلـوم مـن عـالـم الـغـيـ ... ـب ومـنـهـا لآدم الأسـمـاء

سألت سيدنا رضي الله عنه: هل معنى البيت هو ما ذكره في الإبريز والشيخ الأكبر رضي الله عنهما عجز البيت لا صدره؟ فأجاب رضي الله عنه: قال نعم، وأما صدر البيت فهو مصدره ﷺ الخاص به الذي لا مطمع فيه لأحد، لا نبي ولا ولي، وصدق صاحب الهمزية في قوله:

رتـب تـسـقـط الأمـانـي حـسـرة ... دونـهـا مـا وراءهـن وراء

بعد قوله:

وتـرقـى بـه إلـى قـاب قـوسـ ... ـين وتـلـك الـسـيـادة الـقـعـسـاء

وسألته رضي الله عنه عن قول البوصيري رضي الله عنه:

إنـمـا مـثـل صـفـاتـك لـلـنـ ... ـاس كـمـا مـثـل الـنـجـوم الـمـاء

فأجاب رضي الله عنه بقوله: معناه أن الأنبياء والمرسلين ما ظهر عليهم من صفات النبي ﷺ، إنما هو كظهور النجم في الماء، قال سيدنا رضي الله عنه: ولهذا قال أويس القرني رضي الله عنه للصحابة: ما رأيتم منه إلا ظله، قالوا: ولا ابن أبي قحافة، قال: ولا ابن أبي قحافة اهـ، وتقاعس عن إدراك حقيقة سره جميع الكبراء.

قال أبو يزيد رضي الله عنه: خضت لجة المعارف طالباً للوقوف على الحقيقة المحمدية، فإذا بيني وبينها ألف حجاب من نور، ولو دنوت لواحد منها لاحترقت، كما تحترق الشعرة في النار. اهـ وهذا القدر يكفي في فضل بعض دائرة الإحاطة، وما وراء هذا لا تطيقه العقول، ولا تفي به النقول، وما سمعت فيه من الخبر، إنّما هو عن الرسول صلّى الله عليه وعلى آله وأزواجه وذريته وأصحابه.

في سيرته السنية وجمل من أخلاقه السنية وحسن معاملاته مع إخوانه وأهل مودته

قد أكمل الله تعالى لشيخنا وسيدنا أبي العباس التجاني رضي الله عنه الشريعة، كما أكمل الله فيه الحقيقة، وسلك به بين صراطهما المستقيم أحسن طريقة، فشرب منهما لبناً خالصاً سائغاً، وورث منهما مقاماً كاملاً بالغاً، وتمكن من الحالتين ورقى درجة كل من الكمالين، جارياً على مقتضى الأمرين، وسائراً على منهجهما الأعدلين، متكافئ الطرفين ومعتدل الوصلين، جبلاً بين سهلين، وبرزخاً بين بحرين، لا يذهب بحره ببره، ولا يبعد بره عن بحره تقوية من الله له، وتمكيناً وتأييداً له وتحصيناً، وقد مكنه الله من الاتباع غاية التمكين، وأنزله الله بالمنزل المكين، فهو رضي الله عنه في موافقة الشريعة ومتابعة السنة آية، قد وصل في التحافظ عليهما الغاية، وقاف على حدود الله، حافظ لحدود الله، واقف على أوامره ونواهيه، لا أحد في ذلك يقاربه أو يضاهيه، قد حكم السنة في نفسه وعياله، وجعلها شعاره في جميع أفعاله وأحواله، وأتقن رعاية رعيته في داره على ما كانت عليه زمن أسلافه، من حفظ أمر الدين وشعاره، فازدادت كمالاً على كمال، وجمالاً على جمال، حتى طارت بها كل مطار الأمثال، وأعوز سيرها كثير الرجال، وتخلق بالأخلاق الشرعية وجميع آدابها المرعية، فكان خلقه القرآن، وكلما يأمر به الرحمن، يرضى برضاه، ويسخط بسخطه في كل أموره، ويأمر بأمره، ويحذر بتحذيره، فحسنت له السير والشمائل، وعذبت فيه الشيم والفضائل، وطابق ظاهر سيرته وفعاله باطن خلقه وخلاله، وتحقق بالإرث من رسول الله، والتحق السابقين من أهل حزب الله. **فأما** سيرته، فنجده رضي الله عنه شديد الحزم في الدين، عالي الهمة فيه شديد الحرص على مهماته بعد القيام بواجباته، واقفاً على الحدود والأحكام غاية، حاثاً للوقوف عليها، يقول كثيراً أفضل الأذكار، ذكر الله عند أمر ربه ونهيه، حافظاً لحقوق الله، مراعياً لها شديد التحرز والورع في الدين، كثير التحفظ فيه والتحرز للأحوط، ما رأيت أشد حزماً، ولا أعظم ورعاً منه، كله حزم وعزم، لا يحب التأولات، ولا يميل إلى ارتكاب الرخص، عارفاً عالماً مدرساً للعلوم كلها والسيرة النبوية بأسرها، بصيراً بما زاد عليها وما نقص، يعانق الكمالات، ويسابق الغايات، ويسارع إلى الخيرات، يستمع القول فيتبع أحسنه، ويبادر للعمل به، يغرب على فعل المأمورات، ويحذر من الوقوع في المنهيات، ويعظم أمر الشرع العزيز، ويجل أمر النبي ﷺ، أن يخالف، وكثيراً ما يستشهد بقول الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣] ويحث أن يفعل ما فعله النبي ﷺ، ولم يكن فعله على سبيل الأمر لنا، ويقول: ينبغي للإنسان إذا سمع شيئاً من هذه الآداب النبوية، والمباحثات التي فعلها النبي ﷺ، أن يفعلها بقصد الموافقة، ولو مرة واحدة، ويحافظ على السنة في محاولاته ومناولاته كلها، ويجب موافقتها في كل شيء، ولا يجب الخروج عنها في شيء من الأشياء، ولو دعت إليه الضرورة، وكان لا بأس به، فيقول: الخير كله في اتباع السنة، والشر كله في مخالفتها، ويحض على العمل بالعلم كثيراً، وخصوصاً من يشتغل به، فعلى قدر رياح السفينة جريانها، وعلى قدر طبخ الحديد إحكام الصنعة فيه واتقانها، وقد رزق رضي الله عنه من القوة في اتباعه أفعاله ﷺ، ما يكافئ غزارة نوره وعظم حاله، فما أكثر، حفظه للدين، وما أشد حبه إياه واتقانه له تبعاً لسيد المرسلين، يحب عبادة ربه، ويعظم أوامره، ويعبد عبادة العارفين بكماله الخاضعين لجلاله، ويطيعه طاعة الفرحين به المتولهين بحبه، عاملاً على ترك الحظوظ واللحوظ، دالاً غيره على ذلك بحاله ومقاله أبداً، مؤدياً الفرائض والسنن، ويجيء على أحسن سنن، لا يغفل ولا يتوانى، ويحافظ على إقامة الصلاة في أوقاتها وأدائها في الجماعات أبداً، ويتقنها ركوعاً وسجوداً على أكمل وجه وأتم وصف في سكينة وطمأنينة وأدب مع الله عزّ وجلّ، صلاة الخاشعين العارفين، أمثاله لا تسأل عن كثرة خشوع وخضوع وحسن سمت وسمة، لا يستطيع من يعرف حاله أن يلاصقه في الصف مخافة التشويش عليه، وكثيراً ما يحض على إيقاع الصلوات

في أوقاتها، وفي الجماعات أو على قيام الليل، لا سيما آخره، يحث عليه، ويرغب فيه، أتمّ ترغيب، وينشط له ويقول فيه: تتنزل الرحمات وعواطف النفحات، وإن من أيقظه الله فيه فقد استدعاه إلى رحمته، ويداوم رضي الله عنه على غسل الجمعة، ويؤكده لتأكيده سنيته، ويفعله على الوجه المسنون، من كونه متصلاً بالرواح، ويلبس نقي ثيابه إن كان، وإلا ذهب للمسجد الجامع بما عليه، ولا تراه يتطيب بالمسك ونحوه يومها، وإن كان الطيب لها مستحباً ولا في سائر الأيام، وهو يحبه كثيراً، ويجلب إليه، ولعله لأجل ما كثر من استعماله لأهل الرفاهية وكثير من السفهاء بقصد الترفيه، يمشي هوناً في سعيه للصلوات كلها، ويحب فاعل ذلك عملاً بمقتضى الحديث، إذا أتيتم الصلاة فأتوها بسكينة ووقار، **ومن شأنه رضي الله عنه**: يطلب التحقيق والتدقيق في كل شيء، مما جل أو دق، ليقف على التحقيق، ويخرج بذلك عن ربقة التقليد والتصديق في كل أمر أمر، فرد فرد، حتى لقد احتوى على جميع العلوم الرسمية تحقيقاً وتدقيقاً وتفهماً وتدبراً، وفي حل المشكلات المعضلات، حتى صار إماماً في سائر العلوم، يرجع إليه ويقصد في تبيينها لديه، عالماً بتعليلها وحكمها وأصولها وفروعها واستنباطاتها ومفهومها ومنطوقها وناسخها ومنسوخها، واستبحر رضي الله عنه في جميع العلوم النقلية والرسمية، حتى صار لا يضاهى ولا يقاس بحره، ولا يتناهى، كما صار كذلك في علم الحقيقة على ما هنالك، فاستجمع بذلك شروط المشيخة والاقتداء على وجهها، وأتى على حقيقتها وكنهها، ويذكر الله عزّ وجلّ في كل أحيانه لا تفارقه سبحته، يحب الإكثار من ذكر الله، ويحض عليه، ويقول: كل شيء حده الله لنا إلاّ ذكره سبحانه، فإنه قال عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤١] وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا﴾ [آل عمران: ١٩١] الآية، ويواظب رضي الله عنه على أوراده، بعد صلاة الصبح إلى وقت الضحى الأعلى في خلوته، وبعد صلاة المغرب إلى صلاة العشاء في خلوته أيضاً، وكذلك له مرتب بعد صلاة العصر إلى الغروب، وقال رضي الله عنه: لا نذكر ذكراً إلا ما رتبه لي رسول الله ﷺ وكثيراً يلازم الصلاة على رسول الله ﷺ في جميع أحواله، ويحض عليها أصحابه، لا سيما صلاة الفاتح لما أغلق الخ، لما فيها من الفضل العظيم، وسيأتي بيانه إن شاء الله تعالى في محله، وإذا طلبه أحد في شيء من غير الورد المعلوم، ويقول له: أكثر من الصلاة على رسول الله ﷺ بصلاة الفاتح لما أغلق، فإن فيها خير الدنيا وخير الآخرة، وبها ينال جميع المطالب، ويبلغ بها الطالب أنواع المآرب، هذا حاله رضي الله عنه الآن، ويحفظ جوارحه مما نهى الله عنه، فيعرض عن اللغو وما لا يعي، ويصون عنه لسانه، ولا يسمع الباطل، لا يقدر أحد أن يذكره بمحضره، وإن نطق أحد بمنهى، رده للصواب لا محالة كائناً ما كان، لا يتساهل في ذلك، يحذر عن الغيبة غاية التحذير، وينفر عنها كل التنفير، ويذكر ما ورد في ذلك من آية أو حديث، ويطنب في ذلك مبالغة في النكير، ويتحرى الصدق رضي الله عنه في حديثه، ويحض عليه وعلى تحريه، ويسره من صادقه في حديثه، ويسوءه من يكذب عليه، ويعجبه الصادق في فعله الذي يظهر كل ما من شأنه أن فعله، ولو كان قبيحاً، ويستحسنه، ويحظى عنده صدوق اللسان غاية الحظوة، ولا يجب الإكثار من الحلف مخافة الوقوع في الحنث، ويقول: ينبغي للإنسان أن يعود نفسه عند إرادة الحلف قوله: إن شاء الله، مخافة أن يعقد اليمين فلا يبرأ، ويحنث فلا يكفر، ويغض طرفه رضي الله عنه فلا تراه ذاهباً في الطريق إلا ناظراً موضع ممره، ولا يلتفت ذلك دأبه وعادته، فإذا جلس مع الناس، من كان الغالب عليه التغافل عن أحوالهم، يؤدب بذلك كل من حضر لديه، ولا يحب الإكثار من ملاقاة الناس ولا الخوض معهم على ما هم فيه، وإذا لقيه أحد من أصحابه لم يزده على السلام عليه، ولا يقدر واحد منهم أن يقبل يديه، حملاً لهم على عدم التكلف، وميلاً بهم إلى الأدب الباطني، وهو الأدب الحقيقي، خلاف ما اعتاده الناس من تأكيد تقبيل يد كل من يعظمونه، هذا شأنه رضي الله عنه مع من يعرفه وخالطه، لا من غلب عليه، أو كان ذا غفلة لا يعرف تصنعاً ولا استعمالاً، وأما الأجنبيون فإنه يسامحهم ويعذرهم مخافة أن يكثر قلوبهم، فلا يمر في طريق إلا أكب الناس عليه، يسلمون عليه بتقبيل أطرافه، وربما يزدحمون عليه، وذلك لما يفاجئهم من جلالته ومهابته، ويسري إلى قلوبهم مما ألقى الله عليه من محبته، كما ورد في الحديث إن شاء الله تعالى: «**إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ فَيُحِبُّهُ جِبْرِيل ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ أَحَبَّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ فَيُحِبُّهُ أَهلُ السَّمَاء ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ القَبول فِي الأَرْضِ**» الحديث.

وكان رضي الله عنه: قبل هذه الأزمنة ينكر كثرة تقبيل يده، ويزجر كل من فعله من قريب أو بعيد، كما تقدم في باب بدايته، وأما الآن فلم يبق على ذلك بل نقله الله إلى حالة الخلافة الدينية، فصار حاله في ذلك على ما وصفناه رضي الله عنه وأرضاه، ومتعنا برضاه آمين. **وأما صلة الرحم**، فإنه يصل رحمه الديني والطيني، فأما الطيني فإنه يواصل كل من له قرابة به من نسبه وذوي رحمه، يقضي حوائجهم ويتفقد أحوالهم، ويكرم مثواهم، ويتعاهدهم، ويسهمهم مما رزقه الله، ويحمل كلهم، ويكسب معدومهم، ويعينهم على نوائب الخير وعلى مؤنتهم ونوازلهم، فما من مسألة تهمهم إلا أنزلوها به، فيجدون الراحة والمخرج ببركته، لا يغفل عنهم في أمر ديني أو دنيوي، ويحن على كبيرهم، ويرحم صغيرهم، ويؤدبهم كما يؤدب صبيانه، لا يرى أحداً فعل منهم قبيحاً إلا وبخه، يبالغ في نصيحتهم، ويقوم بحقوقهم أحسن قيام، حازم في ذلك كله قوام، ويحض على القيام بحقوق الأقارب، ويوصي بالابتداء بهم على إرادة المواساة عملاً بما ورد في الحديث، وما أكثر ما يعظ في شأن الوالدين ويؤكد على حقوقهما، ويحذر من عقوقهما، ويقول: من لم يبر بهما لا يتيسر له سلوك هذه الطريق، فمن صدر منه عقوق لهما، بعد أن دخل فيها، قطعه ذلك عنها، ثم لا يقدر له أحد بشيء، وما أكثر ما يستعظم خطر المضيع لحقوقهما، وحق له ذلك إنه لعظيم، وأما رحمه الديني: فإنه من أعظم الناس مواصلة له، وأكثرهم براً وإحساناً لأهل جانبه، يواسي إخوانه وأصحابه وكل من له معرفة في الله بأنواع المواساة، ويحسن إليهم، فيطعم جائعهم، ويشمل ضائعهم، ويكسو عاريهم، ويرفد فقراءهم، ويعين ضعفاءهم، إذ هو رضي الله عنه أشد اهتماماً بأهل الأخوة الدينية، يتألم لمصابهم أكثر مما يتألم لذوي نسبه ورحمه، أعظم الناس عنده قرباً أكثرهم في الله حباً، فيقرب الإنسان عنده من ذلك، ولو كان من أبعد الأجانب، ويبعد عنه البعيد، ولو كان من أقرب الأقارب، تجده يستعظم حقوقهم، ويرى أن القيام بها غير مستطاع، سمعته غير ما مرة يقول: من ابتلي بتضييع حقوق الإخوان ابتلاه الله بتضييع الحقوق الإلهية، نسأل الله السلامة والعافية من هذه البلية العظيمة، التي عمت بها البلوى في حلل المدعين للأخوة في هذا الزمان الرذيل، وأما لباسه رضي الله عنه، فيلبس المتوسط من الثياب، مما يقيه الحر والبرد، كما يلبس عامة الناس، ولا يحب الامتياز بثوب حسن ولا قبيح، ولا يرتكب في داره أمراً لم ترد به السنة، بل قطع عنهم جميع العوائد والزوائد، وأمره في ذلك واضح، وتفصيله يطول، ويتبرأ من الدعوى أتم براءة، ويتنصل منها غاية التنصل، ولا يقبل من أحد فعل ذلك، إذا حكى شيئاً صدر عنه من محاسن الأعمال، أو أشار إلى بعض ما له من سني الأحوال لغرض من الأغراض، أسنده إلى مجهول، فيقول: وقع لبعض الناس أو لرجل كذا وكذا، لا يسمي نفسه، ربما نلتقي بمن حضر معه في بعض تلك القضايا بعينه، فيخبرنا بأنه هو فاعلها، فصرنا نعلم ذلك من حاله، ولا يحب من ينسب إليه شيئاً، ولا من يصرح له بسر من الأسرار، ولا من يمدحه بمحضره، وإذا واجهه أحد يوماً بثناء عليه، لم يسامحه، إلا إن كان غائباً، أو عزاً بمدارك الأمور، ويشدد النكير في دعوى الفقر وما يشار إليه، ويقول: إلى الآن ما حصلت لنا التوبة والإيمان الكامل أو كلاماً، هذا معناه تنبيهاً للسامعين وإرشاداً للمتابعين، والتعليم بالفعل أبلغ نصحاً وأتم نجحاً، فجزاه الله عنا خيراً، وزاده منة وبراً، وقد نجح، والحمد لله ذلك، وسرى الأصحاب ما هنالك، لا يحبون الدعوى، ولا من يشتغل بها لما يعلمون من حاله، ويسمعون من مقاله، ويرون من قراره منها وممن هي فيه، لأن الدعوى أشد بلاء من البلوى، وكثيراً ما نراه يستعيذ بالله منها، يقول: إن عقوبتها الموت على سوء الخاتمة، والعياذ بالله، يزجر السامعين بهذا الكلام، وإنه لحقيق بمن ادعى بما ليس فيه، أن يجازى بسوء الخاتمة. نسأل الله السلامة والعافية من هذه البلية العظيمة، ويحب الخمول ولا يحب الظهور، ولا من يتعاطاه كما يأتي في باب زهده، إن شاء الله تعالى، ويحب آل البيت النبوي المحبة العظيمة، ويودهم المودة الجسيمة، ويهتم بأمورهم، لا يزال حريصاً على إيصال الخير إليهم، ويضرع إلى الله فيما يصلحهم، ويكرمهم غاية الإكرام، ويبر بهم أشد البر، ويتواضع لهم أشد التواضع، ويتأدب معهم أحسن الأدب، وينصحهم ويذكرهم ويرشدهم إلى التخلق بأخلاق النبي ﷺ والعمل بسنته، ويقول: الشرفاء أولى الناس بالإرث من رسول الله ﷺ، ويحض الناس على محبتهم وتوقيرهم والتواضع لهم والأدب معهم، ويبين عظيم مجدهم ورفيع قدرهم، ويرى أن التواني في أمورهم ومحبتهم نقص في الإيمان، ولا يحب من يناويهم أو يباريهم أو يخل بالأدب معهم، ويشدد النكير على من فعل ذلك معهم رضي الله عنه وأرضاه، ومتعنا برضاه آمين، ومن عظيم محبته إياهم وأدبه معهم تواضعه لعلي قدرهم أن لا يترك من استشاره من أصحابه، أن

يصاهرهم مخافة تقصيرهم في شيء من الحقوق التي تجب عليه لهم، أو وقوعه في بعض الحقوق، ورأيته يوماً شدد على بعض أصحابه حين أراد تزويج شريفة فمنعه من ذلك، وقال له: إن فعلت فأنا بريء منك في الدنيا والآخرة، نعوذ الله من مخالفته في غيبته وحضرته، وذلك أن يقع منهم ما يغضبهم ويسوءهم، فيغضب بذلك فاطمة بنت النبي ﷺ، ويغضب أباها ﷺ ما أغضبها، للحديث الذي أخرجه الإمام أحمد في مسنده، والطبراني والحاكم في المستدرك، والبيهقي عن المسور بن مخرمة رضي الله عنه، حيث خطب ابنته الحسن المثنى على ابنة عمه فاطمة بنت الحسين رضي الله عنهما، فاعتل له بحديث: «فَاطِمَةُ بُضْعَةٌ مِنِّي يُغْضِبُنِي مَا يُغْضِبُهَا وَيُبْسِطُنِي مَا يُبْسِطُهَا» وبأن عنده أشبهها، وذلك يقبضها ويقبض جدتها بنت رسول الله ﷺ، فوافق فعل سيدنا رضي الله عنه فيمن استشاره فعل هذا الصحابي الكريم، وسلك مسلكه في الإجلال والتعظيم، وإن المصاهر لهم قد يرى في نفسه شيئاً من المساواة، فيخل بنا بالوقار، وكثيراً ما يوصي بتوقيرهم أو احترامهم، والاحتياط في تعظيم مقامهم بعد المصاهرة لهم، مخافة أن يرى الإنسان نفسه أهلاً لذلك، فينكح منهم كما نكحوا منه، فلا يرى لهم مزية، ويستخف بمرتبتهم العلية، وهذه آفة قلبية وعلة خفية، لا يراعيها ويحترز منها إلا أرباب القلوب، ومن شدة تعظيمه لقدرهم وغيرته عليهم، أنه لا يحب من يخالطهم على حظ، ويخادعهم في شيء أو يكتم عنهم نصيحة، ويقبح ذلك غاية التقبيح، ويكره فاعله، والحاصل أن محبته لآل البيت النبوي وتعظيمه إياهم أمر عظيم، لم ير مثله لأحد من أهل زمننا، ولا سمعنا به، بل هو شيء انفرد به، وتحقق منه تحقيقاً ويقيناً، والمحبة وإن كانت وصفاً قلبياً، تعلم زيادتها بالأحوال الدالة عليها والأمارات المرشدة إليها، وإنا لا نعلم من يحب الشرفاء ويعظمهم في هذا الزمان مثل محبته وتعظيمه، وليس ذلك بمستغرب في أمثاله محبة آل النبي، رزقنا الله منها أوفر حظ ونصيب من نتائج الإيمان الحقيقي وثمراته، وكذا سائر هذه السيرة المحمدية التي سار بها شيخنا، رضي الله عنه، مما في بيان آثارها ونشر أخبارها عبرة للمعتبرين وتذكرة للمذكرين، وتسديد للمتقين، وتأييد للموفقين، وعون للموجهين، ويقظة للمنتبهين، ومحجة للمتقدمين، وحجة على المعتدين، رزقنا الله بركته وضاعف لنا محبته، **وأما أخلاقه رضي الله عنه**: وهي ما تكيف به من الأوصاف المجيدة الأخلاق الحميدة التي هي المسماة بمكارم الأخلاق، وهي الذكاء والفطنة والشجاعة والنجدة والحنان والشفقة والرأفة والرحمة والصبر والاحتمال والتواضع والأدب وعلو الهمة، التي هي العفاف والصيانة والوفاء والفتوة، التي هي الكرم والسخاء والحلم والأناة والعفو والإيثار والسعي في حوائج الأبرار، إحدى وعشرون قد تقدم منها في باب نشأته، الأربعة الأول: التي هي الذكاء والفطنة والشجاعة والنجدة، ويأتي ما بقي فيما بعد، إن شاء الله تعالى، وقد أكرمه الله تعالى بأوصافٍ جُبِلَ عليها في أصل فطرته، فلما فتح عليه ما فتح، عادت قربى إلى الله، وصلة لحضرته، فأنزل كلاً منها بمحله، ولما خلق لأجله، فصارت كلها لله، وفي الله فكان ذكاؤه، فهمه عن الله مراده وأناته، واتقانه العبادة وصبره سكونه تحت مجاري الأقدار، واحتماله قضاؤه الحوائج والأوطار، وشجاعته قوة في الدين، ونجدته نصرته طريق المهتدين، وسخاؤه بيع نفسه على الله، وفي الله، وعلو همته انقطاعه إليه عما سواه، وفتوته وفاءه به بمعاملة مولاه، وكانت تلك الأوصاف تمهيداً لهذه الأخرى، ورقى بها في درجة الإحسان مقامة كبرى كل ميسر لما خلق له، **ومن** أخلاقه الكريمة النافعة العميمة: الحنانة والشفقة والرأفة والرحمة، لا تجده إلا عطوفاً رؤوفاً شفيقاً رفيقاً، يحن على المسلمين، ويرق للمساكين، ويألم لمصابهم، ويشفق لما بهم، ويلاطف ذوي الحاجات، ويواسي ذوي الفاقات، ويود ذوي الاغتراب أكثر من ذوي الاقتراب، ويميل إليهم، ويتعطف عليهم، ويجالسهم ويؤانسهم، ويعاملهم، وخصوصاً أهل الفطرة السليمة منهم، الذين لا يضمرون من سريرتهم مثقال ذرة منّ، فكثيراً ما تراه يبر بهم، ويرفق بهم، ويرحمهم ويكرمهم، ويعجبه حالهم، ويثني عليهم بظهر الغيب الثناء الجميل، وما شكى له أحد مرضاً ولا ألماً إلا اهتم له واعتنى بأمره، فلا يزال بذكره داعياً له، ويسأله عن حاله حتى يكشف الله ما به، ويفرج الله عنه، وما أبصر ذا مصيبة إلا رق له رقة عظيمة، ويدعو له، ويقول: أعاذنا الله بفضله من بلائه، آمين، فهذا ديدنه رضي الله عنه وأرضاه، وجعل الوجه الكريم متقلبه ومثواه، **ومن أخلاقه** العظيمة التي سبق فيها من قبله، وأعجز من يأتي بعده: التواضع والآداب وحسن الخلق والمعاشرة، رقيق القلب رحيماً بكل مسلم، متبسماً في وجه كل من لقيه، وكل من لقيه يظن أنه أقرب إليه من غيره لما يرى من طلاقة وجهه وحسن كلامه وكثرة إقباله، حتى إذا لقيه المحزون زال حزنه بمجرد لقائه، هيناً ليناً في كل شيء، حتى في مشيه يذكرك قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ

يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣] الآية. ما رأيت أحسن خلقاً ولا أوسع صدراً ولا أكرم نفساً ولا أعطف قلباً ولا أحفظ عهداً ووداً ولا أكثر علماً وفهماً منه، ومع جلالة قدره يقف مع الصغير ويوقر الكبير، ويجالس الضعفاء ويتواضع للفقراء اقتداءً برسول الله ﷺ، ولا يقصد أحد معارضته بشيء من العلوم كلها إلا أفحمه، فيبقى متحيراً متعجباً من غرائب العلوم والفهوم ممن جمع الله له العلم والعمل والولاية الكبرى، وارتقى في ذلك إلى النهاية مع الحرص والشفقة على الخلق، مما يقربهم إلى الله تعالى، والصبر على إذايتهم، إلى الغاية إلى ما وضع له في القلوب من الهيبة العظيمة والإجلال، مما لم يعط لأحد ممن عاصره من العلماء والأولياء والزهاد وغيرهم، ولهذا سار الناس إليه من أقاصي البلدان يتبركون به، ويأخذون عنه، ويستندون في الأمور الدينية والدنيوية والأخروية إليه، فلا تجد من يقاربه في الرحمة والإرشاد للخلق، فضلاً عن مثله، ومع هذا كله رضي الله عنه، تجده يتواضع في نفسه لله، وفي ذات الله لعباد الله أهل النسبة إلى الله وآل البيت النبوي وكل ذي نسبة دينية ومحبة إيمانية، أما في نفسه فإنه لا يرى لها قدراً، ولا ينسب لها أمراً، ولا يرى استحقاق شيء على أحد حتى أهله وعياله، ويخدم نفسه وأهله، لا تستنكف نفسه عن فعل شيء كائناً ما كان، ولا يجب امتيازاً ولا اختصاصاً بشيء، ويرى لغيره المزية عليه، ويقول: لعل الله يرحمنا في جماعة المسلمين، وينسب لنفسه الأشياء الوضيعة، ولا يبرئ نفسه من خصلة ذميمة أو فعلة قبيحة، ويشهد حقوق الناس عليه، ويقول: لم نوف لمن عرفناه حقه، ولم يستوفه أبداً، ويقول: المؤمن هو الذي يرى حقوق الخلق عليه، ولا يرى لنفسه على أحد حقاً **وأما التواضع** في الله لعباد الله، فإنه يخدم بنفسه من والاه من الأصحاب وغيرهم في الحضر والسفر، لا يبالي بعناء نفسه في ورد ولا صدر، ولا يترك أحداً يشتغل بتعظيمه أو يميزه بشيء كتقبيل اليد ونحوه، ولا يقدر أحد أن يسومه بشيء من ذلك، ولا يرى نفسه أهلاً لشيء من ذلك أبداً.

وأما أدبه رضي الله عنه: ظاهراً وباطناً في الشريعة المحمدية ومع الله جلّ جلاله فشيء بلغ فيه أقصى الغايات، وبرع فيه على أهل البدايات والنهايات، حسبما يعلم ذلك من حاله ومقاله، ويشهد له ما تقدم من خلاله وفعاله، والأدب عند الفقهاء عبارة عن القيام بما بعد الوجبات والسنن من الفضائل والرغائب المتعلقة بأحوال الإنسان من نوم ويقظة وأكل وشرب، وذكر ودعاء ونحو ذلك، وعند الصوفية عن جميع خصال الخير وأوصاف البر، فهو وصف جامع لأوصاف مجيدة وأخلاق حميدة، تناسب وصف العبودية وجلال الربوبية من جمعها، فقد اتصف بالآداب، وكان أديباً متأدباً مع الله تعالى ومع رسول الله ﷺ، والأدب بالمعنى الأول مندرج في هذا، وقد جمع سيدنا رضي الله عنه الأدب ظاهراً وباطناً وسراً وجهراً ولله در القائل:

إذا نطقت جادت بكل مليحة وإن سكتت جاءت بكل مليح

فمن أدبه الظاهر: مواظبته على ما ورد في السنة من الآداب الشرعية المتعلقة بأحوال الإنسان، ومحافظته عليها بقدر الطاقة والإمكان في قيامه وقعوده واضطجاعه ومشيه وجلوسه، وما روي رضي الله عنه قط ماداً رجله إلى القبلة، وما بصق قط وهو جالس في المسجد، ولا رفع فيه صوته، وما سمع أحداً يرفع فيه صوته إلا نهاه، وما رأى أحد أخل بشيء من آداب الشريعة إلا نبهه، ويقول له: إذا كان ممن له معرفة بها على سبيل الإنكار والتوبيخ، أهكذا ورد في السنة، ولا يجب ارتكاب شيء من آداب الناس العادية التي لم ينه عنها الشرع، ولم ترد السنة به اقتصاراً منه على ما ورد في الشريعة وتخلقاً بأخلاق السنة الرفيعة، ومن آدابه الباطن الذي دلت عليه أقواله وأفعاله، أنه رضي الله عنه لا يختار مع الله، ولا يدبر مع تدبيره شيئاً كما تقدم، حتى أنه إذا دعا لنفسه أو لأحد بشيء، مما كان مجهولاً عاقبته، أو فيه حظ، كان دعاؤه طلب الخير من الله، ويقول لنا المرة بعد المرة: لا أدعو إلا بلساني، وقلبي مستسلم لله تعالى، ويقول: لا أريد شيئاً، ولا أطلب شيئاً، تفعل ما تشاء وتحكم ما تريد، ويقول: إنما أجاري الخلق بلساني لا غير، لعدم كسر قلوبهم وغير ذلك، وتارة إذا طلبه أحد بالدعاء يقول: لا أدعو أدباً مع الله جلّ جلاله، وعلمنا منه رضي الله تعالى عنه، بأن ما يختاره الله أحسن مما يختاره العبد لنفسه، أو غيره، أما الدعاء بما ورد عن الشارع مما فيه ترغيب أو ترهيب أو تقرب أو وصلة إلى الله جلّ جلاله، أو وصف عبودية من إظهار فاقة وتملق وتضرع وخضوع لله سبحانه، وكذا طلب التوبة والمغفرة والرحمة والقبول منه جلّ وعلا ونحو ذلك، فلا يزال لهجاً به، وطيباً به قلبه ولسانه ويقول: إن ذلك كله ليس في اختيار مع الله، لأنه مأمور به شرعاً، وكثيراً ما يجري على لسانه بالدعاء، الله يقبل عليك بمحض فضله ورضاه، **ومن أدبه رضي الله عنه**: أنه لا يريد الخوض في شيء من تصاريف أقدار الله

سبحانه وتعالى، ولا للتعرض في الكلام فيما وقع، ولا تمني زوال ما هو واقع منها، ويعد الخوض في ذلك كله اعتراضاً على الله وسوء أدب معه، وينسب القصور للنفس، ويرى النقص منها فيما يبتلى به العبد من القضاء، بعد اعتراف أنه من الله تخلقاً بأخلاق الشريعة، وتحققاً بأن الكمال لا ينسب إلا لله، ولا ينسب لغيره، وإن كان أثراً من آثار قدرته لا لغيره، مراعاة لمقام الأدب معه تعالى، ويحكى في ذلك حكاية معلومة لبعض الملوك السالفين، وهي: أنه كان له غلام عزيز عليه جداً، فكلمه قواده في ذلك فأراد إظهار مزيته لهم، فأخرج لهم ياقوتة نفيسة، وأمرهم بكسرها، فجعل كل منهم يشير عليه بإبقائها، فأمر الغلام بكسرها فكسرها مكانه دون تردد، فزجره السلطان ووبخه على كسرها، فجعل يتضرع إليه: يا سيدي يا مولاي، فقال السلطان عند ذلك للآخرين: أنتم أمرتكم أولاً، فجعلتم ترشدونني، ولو كسرتموها ولمتكم، لقلتم أنت أمرتنا، وهذا امتثل أولاً وتضرع ثانياً، لهذا أحبه، هذا ما يدل على نوع من آدابه الباطنة، وأما ما وراء ذلك من مراعاة خواطره وأنفاسه وتقلباته وأدبه مع الله في ذلك كله، فما لا نطلع عليه، وقد يكون هنالك آداب باطنية ظهرت عليه علامتها، فلم نعرف دلالتها على ذلك والأدب على قدر المعرفة، ولن يخفى عليك بعد معرفة ما تقدم كمال معرفته رضي الله عنه الملزوم لكمال أدبه، بل ولكمال هذه الأخلاق كلها المنصوبة في الأدب التي بلغ كاملاً وبالجملة فأدبه مع الله تعالى ورسوله وتواضعه في نفسه وللخاص والعام من أبناء جنسه، وصبره واحتماله وشفقته وحنانته وعظيم فتوته وعلو همته هذه خصوصاً، وسائر أخلاقه عموماً أمر عزيز الوجود غريب الورود، لا يتفق إلا لخواص الخواص من ذوي الصديقية والإخلاص والمعرفة والتوحيد الخاص الذين استغرقهم رحمة الرحمن، وعمهم الفضل منه والإحسان، وإذا أراد أن يظهر فضله على عبده، أهّله لحبه ووده، وجلع فيه إتلافه، ومحا بوصفه أوصافه، فأثمرت بكل جميل أغصانه، وتنوعت فنونه وأفنانه، واتصف بكل نعت كريم وخلق عظيم، فسبحان الرحيم الودود الواسع الكرم والجود الذي أكرم خلقه، ووسع لمن شاء رزقه، لا إله غيره، ولا خير إلا خيره، ولا معطي إلا هو، ولا راحم سواه، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.